مباحث الأدب المقارن: علم الصورة: تحديد مفاهيم/ المنهج في استخراج صورة الآخر في الأدب

أهداف الدرس:

في نهاية هذا الدرس، يُتوقع من الطالب أن يكون قادراً على:

- ✓ تعريف علم الصورة (Imagologie) لغة واصطلاحا
- ✓ يتعلم الطالب "كيف" يقوم بتحليل النص لاستخراج صورة الآخر.
- ✓ يستنتج في الأخير ويربط الصورة بالظروف السياسية والاجتماعية التي أنتجتها (مثلاً: كيف تغيرت صورة "العربي" في الأدب الأوروبي قبل وبعد الاستعمار؟).
- ✓ **تمييز الصورة** من مجرد وصف حيادي: هل الكاتب يصف "الآخر" أم يصنع "صورة" عنه محملة بذاتيته وأحكامه المسبقة.
- ✓ إدراك أن علم الصورة لا يبحث عن "حقيقة" الآخر، بل عن" **تمثلات الحقيقة** "كما يراها كاتب معين في زمن معين.

خريطة ذهنية لعلم الصورة

01- علم الصورة؛ تحديد مفاهيم:

يعد علم الصورة من بين أبرز المباحث التي اعتمدت عليها الدراسات المقارنة فقد تزامن ظهور هذا العلم مع ظهور الأدب المقارن في الساحة الفكرية وببساطة يمكننا القول أن هذا العلم يهتم بالآخر فهو يركز على دراسة **التمثيلات الثقافية** للآخر في النصوص الأدبية. ويساعد أيضا في فهم كيفية **بناء الهويات** من خلال جدلية الأنا والآخر، معتمداً منهجاً تحليلياً دقيقاً "تعود البدايات الأولى لدراسة صورة الآخر في الأدب المقارن إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر ميلادي وذلك بعد زيارة مدام دي ستايل الفرنسية إلى ألمانيا والتي مكثت بها مدة طويلة نقلت خلالها صورة الشعب

الألماني إلى الشعب الفرنسي متفاجئة بما اكتشفته عن ذلك الشعب"[1] ومن جهة أخرى ترى ماجدة حمود أن هذا الكتاب أي كتاب مادام دي ستايل **عن ألمانيا** كان له الأثر البالغ في تأسيس هذا العلم فقد كانت من بين أبرز من سعوا إلى تصحيح تلك المغالطات التي شوّهت صورة الشعب الألماني في أذهان الفرنسيين لقد "اكتشفت عبر رحلتها أن الشعب الألماني يتمتع بمناقب جمة (الطيبة والاستقامة والصدق) كما فوجئت بجمال الطبيعة خصوصا نهر الراين والغابة السوداء وبغنى الأدب الألماني والمستوى الرفيع الذي بلغته الفلسفة الألمانية، لهذا يمكننا أن نعد هذا الكتاب بداية لما أصبح يعرف **بالدراسة الأدبية للآخر**"[2] .

يرى دانييل هنري باجو في كتابه **الأدب المقارن والعام** أن مفهوم الصورة في الأدب المقارن يختلف تمام الاختلاف عن مفهوم الصورة كما نعرفه في الواقع أي أنه ليس عبارة عن نسخ فوتوغرافية كما نتخيل، بل هو **إعادة خلق للآخر** ممزوجة بإيديولوجية الكاتب وذاتيته، مما يجعلها لغة رمزية للتواصل الثقافي "في المعنى المقارني يستدعي مفهوم الصورة تعريفا أو على الأصح فرضية عمل يمكن أن تصاغ على الشكل التالي: كل صورة تنبثق عن إحساس مهما كان ضئيلا (بالأنا) بالمقارنة مع الآخر و(بهنا) بالمقارنة مع مكان آخر. الصورة إذن هي تعبير أدبي أو غير أدبي عن انزياح ذي مغزى بين منظومتين من الواقع الثقافي(...) الصورة إذن هي إعادة تقديم واقع ثقافي يكشف من خلاله الفرد والجماعة الذين شكلوه ويترجمون الفضاء الاجتماعي والثقافي والأيديولوجي والخيالي الذي يريدون أن

---

[1]- نصيرة كبير: الصورولوجيا في الأدب المقارن(الصورة الأدبية للآخر)، مجلة الخطاب والتواصل، ع07، 2020، ص343.

[2]- ماجدة حمود: مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن-دراسة-، اتحاد الكتاب العرب، ط1، 2000، ص110.

يتموضعوا ضمنه"[1]، كلام هنري باجو مهم جدا في الكشف عن حقيقة وطبيعة الصورة في الأدب المقارن إنها ذات بعد أيديولوجي وثقافي تستطيع من خلاله الأنا خلق كليشيهات أو بعبارة أخرى تمثلات عن الآخر، وهذه التمثلات يمكن أن تتحول إلى **تنميطات ذو بعد تراتبي** يخدم الثقافات المهيمنة والنظم المستبدة "ثمة إذن بداية أخرى، بداية جديدة جعلت التفكير في الآخر يأخذ أبعادا أخرى مرتبطة بالعصر الكولونيالي الجديد بكل حمولاته السياسية والفكرية"[2] ،إذن هذا العلم مثله مثل السوسيولوجيا والأنثروبولوجيا ارتبطت نشأته بالحملات الكولونيالية التي شنتها الإمبراطورية الفرنسية والبريطانية لكن من جهة أخرى ينفي عبد الرحمان بوعلي ارتباط هذا العلم يالثقافة الكولونيالية ويرى أن نشأت علم الصورة في الأدب الفرنسي يختلف عن نشأته في الآداب الأخرى فقد بدأ هذا الحقل في الثقافة الفرنسية "تحديدا من التفكير في الأثر الاسباني في الأدب الفرنسي وتحديدا من تعرف الكليشيهات أو الصور النمطية للإسباني كما تجلت في الأدب الفرنسي"[3]. ويعد رولان بارت من بين أبرز من أسسوا لهذا المجال في الأدب الفرنسي خصوصا في كتابه **حول راسين** الذي حاول فيه "تقديم نقد جوهري لحقل تاريخ الأدب التقليدي وكما يقول هنري باجو لقد عارض بارت البرنامج الذي كان لوسيان فيبر قد اقترحه وهو بصدد نقد لتاريخ الأدب الفرنسي"[4].

---

[1]- هنري باجو: الأدب المقارن والعام، تر: غسان السيد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ط1، دت، ص91.

[2]- عبد الرحمان بوعلي: الصورولوجيا وإشكالية التمثلات الأدبية، مجلة دراسات وأبحاث، م12، ع2، 2020، ص80.

[3]- عبد الرحمان بوعلي: الصورولوجيا وإشكالية التمثلات الأدبية، ص80.

[4]- عبد الرحمان بوعلي: الصورولوجيا وإشكالية التمثلات الأدبية، ص80-81..

إن ما يتميز به هذا المجال هو القدرة على نقل مختلف المعارف والثقافات والتعبير عنها وهذا ما يسمية المقارنون **بنمطية الصورولوجيا** وفي هذا الصدد تقول نصيرة كبير "تخضع الصورولوجيا لنمط يعد شكلا أوليا لها ومن العناصر التي تخضع له إما **إيجابيا** فيعبر عن الآخر ويصفه بعيدا عن التنويه ينقل إلى القارئ الصورة الحقيقة التي يتميز بها الآخر مثلما نقل عن الشرق وما يسوده من دفء إنساني وروح الإخاء، وإما **سلبيا** فينقل صورة الآخر مشوهة رغم ما يتميز به من فكر وانفتاح فينقل كل هذا بصورة عكسية ويقدمه على أنه متخلف وجاهل وهمجي ليس له حضارة"[1]، يقودنا هذا الحديث مباشرة إلى إدوارد سعيد الناقد الفلسطيني وأستاذ الأدب المقارن، أسس سعيد لمجال مهم جدا طور به مفاهيم الآخرية وفكك عن طريقه تلك الرؤية التي اعتبرت أن الشرق هو فضاء لتشكل الهمجية والخضوع وأن الغرب هو الوصي الذي يعرف حقيقة الشرقي وطرق تفكيره، لقد نصّب نفسه بصفته الأب الذي يحرص على تربية ابنه غير الناضج، إن هذا التقسيم (شرق /غرب) غير المبرر/الخيالي، على حد تعبير الكاتب، ليس نتاجا للخيال البشري فقط، وإنما هو اختراع رسمه العقل الغربي في «صورة تجسدت عن طريق ثنائية السيطرة /الخضوع. فالعلاقة بين الشرق والغرب علاقة قوة وسيطرة ودرجات متفاوتة من الهيمنة».[2] هذه الهيمنة التي جسدها فلوبير في رواياته من خلال إخضاع الشرقي لتلك الصورة الجديدة التي رسمتها مخيلة فلوبير، وتجسدت بعد ذلك في الخطاب السياسي لجيمس بلفور واللورد كرومر اللذين شغلا مناصب ذات نفوذ في الإمبراطورية البريطانية، واستطاعا

---

[1]- نصيرة كبير: الصورولوجيا في الأدب المقارن(الصورة الأدبية للآخر)، ص344.

[2]- إدوارد سعيد: الاستشراق -المفاهيم الغربية للشرق-، تر: محمد عناني، دار رؤية، ط1، 2006، ص49.

بخبرتهما أن يتحدثا باسم العالم المتحضر وباسم الغرب «فاللغة التي يستخدمها كرومر وبلفور تصور الشرقي في صورة شيء يصدر الحكم عليه (كما يحدث في المحكمة)، أو شيء يدرسه المرء ويصفه (كما هو الحال في المقرر الدراسي) أو شيء يؤدبه المرء (كما يحدث في المدرسة أو السجن)».[1]

وبالتالي، فالاستشراق في نظر إدوارد سعيد لم يعد عبارة عن مؤسسة يرتبط ظهورها بأوروبا في عصرها البرجوازي، وإنما هو خطاب تشكَّل بداية من المراحل الأولى للتفكير اليوناني، بل تجاوز ذلك إلى أن أصبح عبارة عن استراتيجية «تكمن في كونه دليلا على السيطرة الأوروبية الأمريكية على الشرق، أكثر من كونه خطابا صادقا حول الشرق. فقد أنشأه من أنشأه واستثمر فيه من استثمر فيه... إلى حد اعتبار الاستشراق مذهبا معرفيا عن الشرق، بل وتحوله إلى مصدر حقيقي للإنتاج والكسب، إلى تكاثر الأقوال والأفكار التي تتسرب من الاستشراق إلى الثقافة عامة».[2]

[1]- إدوارد سعيد: الاستشراق -المفاهيم الغربية للشرق-، ص97.

[2]- إدوارد سعيد: الاستشراق -المفاهيم الغربية للشرق-، ص50.